٤٢ عبد الرحيم القنائى
قطب الصعيد الوافد من المغرب

فى فترة اتسمت بالصراع الحاد فى المغرب بين المرابطين الذين يحاولون فى بأس شديد استرجاع ماضيهم السليب، وبين الموحدين الذين يتفانون فى تثبيت دعائم ملكهم.. ولد السيد عبد الرحيم القنائى فى سنة ٥٢١ هجرية. من أخريات أيام مؤسس دولة الموحدين ابن تومرت.

وكانت مدينة ترغاى بإقليم «سبتة» بالمغرب هى مسقط رأس هذا الرجل الصالح. وفيها نشأ وترعرع، وفى دور العلم بها حصَّل الكثير من المعارف الدينية. خاصة فى مسجد ترغاى الكبير، متتلمذاً على أيدى كبار علمائها. وفى مقدمتهم والده أحمد بن حجون. وكان عالماً تقياً ورعاً.. يتمتع بمكانة عظيمة من الاحترام والتقدير. كما كان له فى نفوس أهل إقليمه «ترغاى» كل محبة وولاء، فهو بينهم الإمام، والواعظ، والمعلم، والمصلح الدينى والاجتماعى الذى يلجأ إليه كل صاحب مشكلة فقهية أو علمية أو اجتماعية.

وقد يلحظ القارئ أن اسم الوالد هو أحمد بن حجون يختلف تماماً عن اسم الابن الذى هو عبد الرحيم القنائى فما معنى هذا الإختلاف؟

إن لذلك قصة تبدأ منذ أن رُزق هذا الوالد الصالح أحمد بن حجون بغلام سماه «أسد»، على ما كان شائعاً فى القبائل بالمغرب، واستمر هذا الاسم بدون تغيير حتى كبر الغلام وشبَّ ولم يتغير، غير أن الابن نفسه رأى ضرورة تغيير الاسم، لشعور داخلى بأن أسداً لا يستقيم مع ما يتسم به من تقوى ودعة ورحمة، ووجد أن أقرب الأسماء إلى صفاته هى اسم «عبد الرحيم»، وفى ذلك

يقول هو نفسه: «كان اسمى الذى سُميت به أسداً بلغة أهل قبيلتنا، فلما فتح الله لى، وعاينت وصف الرحمة، سميتُ نفسى عبد الرحيم طمعاً فيما عاينت..». ثم أُضيف إلى «عبد الرحيم» صفة «القنائى» نسبة إلى تواجده بمدينة قنا بصعيد مصر فاشتهر بين الناس ـ وخاصة أنه كان صالحاً، له مريدوه فى كل مكان ـ بعبد الرحيم القنائى، كما سيأتى فيما بعد. وعُرف بهذا الاسم حتى وفاته.

ونعود إلى تأمل سيرة حياة هذا الرجل الصالح فنجده طفلاً نشأ نشأة دينية خالصة، تبدأ من البيت، حيث تتفتح كرامته على والده متعبداً تقياً، وتنتهى إلى المسجد وغيره من أماكن العبادة وتلقى علوم الدين، حتى لم يكد يصل إلى العاشرة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن وجَوَّده تلاوة وفهماً.

ويستمر على هذه الحالة، حتى إذا بلغ الثامنة عشر من عمره يتوفى والده، فيترك هذا الحادث الجلل أثراً كبيراً فى نفسه، فلم يكن هذا الوالد مجرد أب له، بل كان معلماً له أيضاً. حتى إن وفاته تركت بصماتها على صفحة حياته من الناحية النفسية، والناحية الجسدية أيضاً. أمرا لاحظته والدته العربية الأصل، فرأت أن ترسله إلى أشقائها بدمشق فى الشام، فربما يكون فى الإقامة بين أخواله فى المشرق العربى ـ إلى جانب تغير المكان ـ ما يشفيه نفسياً، وما يعينه على النمو جسدياً، أو ربما يتحقق من هذه السفرة بعض الفوائد التى أولها تحصيل معارف جديدة تشغله عمَّا يفكر فيه من رحيل الأب والمعلم.

وبالفعل رحل الابن عبد الرحيم إلى المشرق حيث دمشق، وكما توقعت والدته لم تقتصر الفائدة على الشفاء فحسب، بل تجاوزتها إلى تحصيل أكبر قدر من العلم، مما يوافق استعداده الطبيعى.

فمن دمشق استطاع الاتصال بكبار علماء وفقهاء المشرق العربى، وأن يقترب من عالمهم.. ويظل على هذ الحال فترة من الزمن جاوزت العامين، نهل فيهما من علوم المشارقه، كما تفقه فى علوم المغاربة، إلاَّ أن شدة الحنين إلى مسقط رأسه «ترغاى» بالمغرب التى تناديه إلى العودة، فعاد إليها، وقد أصبح فى العشرين من العمر، هذا إلى جانب أنه أضاف إلى معارفه وتجاربه معارف وتجارب جديدة اكتسبها من تواجده عامين فى المشرق، كما أكسبه نضجاً وعلماً جديدين.

لقد كان الامتزاج بين الثقافة المشرقية والأخرى المغربية أثرهما البالغ فى نفس ذلك الشاب المتفتح الواعى، لقد صقل هذا الامتزاج شخصيته بشكل ملحوظ، حتى أصبح من العلماء الذين يمكن أن يرجع إليهم فى القضايا الدينية.

ومما ذكره المؤرخون أن هذا الرجل الصالح كان حين يدخل المسجد لا يدخله كطالب علم، بل على أنه عالم يملأ المكان الذى أصبح شاغراً لرحيل والده، حتى إن المسجد الكبير فى «ترغاى» بالمغرب. كان يمتلئ حتى لم يعد فيه مكان لقادم. فالناس يأتون إليه من كل صوب وحدب ليروا ابن العشرين عاماً عالماً يجمع بين ثقافة المشرق وثقافة المغرب. أو بين ما حققه فى طفولته وصباه. وبين ما اكتسبه من شبابه وسفره.

وهكذا قضى السيد عبد الرحيم القنائى خمس سنوات جديدة من عمره على هذا النحو إماماً وفقيهاً فى موطنه «ترغاى» بالمغرب، إلى أن سمع فيما سمع عن تكتل لقوى العدوان الصليبى تتجه بأنظارها إلى المشرق العربى لتفتك به تحت راية الصليب. وهنا رأى وجوب تكتل القوى لحماية حواضر الإسلام. وفى هذه الأثناء توفيت والدته، تلك التى كانت تجعله يتمسك بالبقاء فى «ترغاى».

وهنا عزم على الرحيل متوجها إلى المشرق مرة ثانية ولكن إلى الحجاز فى هذه المرة لتأدية فريضة الحج.. وبين الأماكن المقدسة يظل تسع سنوات متنقلاً وحاجاً فى كل سنة. حتى إذا كان موسم الحج العاشر. التقى بأحد الرجال الصالحين، وهو الشيخ مجد الدين القشيرى، القادم من صعيد مصر، ويتم بينهما حديثٌ ودّىٌّ ـ فقد كان كل منهما قد سمع بأخبار أخيه ـ خلاصته لمَ لا يفكر فى السفر إلى مصر؟! ودعاه لزيارة «قنا» لما لها من مقومات ربما لا تتوفر فى أى مدينة مصرية أخرى، ولرفع راية الإسلام، وتعليم المسلمين أصول دينهم، لما لمسه القشيرى فى هذا الشاب الورع من علم وفضل، وتقوى وورع.

ولم يتردد فى السفر إلى قنا بصحبة الشيخ القشيرى إلى قنا. وفى هذه المدينة الهادئة بدأ صفحة جديدة من حياته. فأمضى فى بادئ الأمر عامين يتعبد ويختلى بنفسه ليعرف خباياها وجوهرها، وفى الوقت نفسه كان يعمل ليضمن قوت يومه.

فهو يرى أن الدين الإسلامى دين علم وعمل، ومن ترك واحدة منهما ضل الطريق.. وبدأ بعد ذلك فى القيام بمهمة الوعظ والدعوة. وتقديم الدين الإسلامى على نحو ما عَرَفَ وما اكتسب، سواء فى المغرب أو المشرق. وأفاض فى ذلك، وفُتِحَ عليه، فكانت له مؤلفات، فى مقدمتها «تفسير القرآن الكريم» و«الأصفياء» وغيرهما.

وامتدت شهرته إلى أبعد من المكان الذى اختاره للقيام بمهمته. حتى وصلت إلى السلطان العزيز بن صلاح الدين الأيوبى. فأصدر قراراً بتعيينه شيخاً لمدينة قنا، ومن يومها أصبح يعرف بالقنائى. واستقر فى هذه المدينة من صعيد مصر، وتزوج ابنة الشيخ القشيرى، وأنجب أولاداً كثيرين، وأنشأ زاوية يتعبد فيها، حتى كانت وفاته سنة ٥٩٢، فدُفِنَ فى المكان المُقام عليه مسجده الآن بمدينة قنا.

والحق أن للسيد عبد الرحيم القنائى الكثير من الإضافات فى مجالات عدة، لعل أبرزها التصوف، والعلم، والاجتماع والأخلاق. وقد سجل الأستاذ محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر» الكثير من هذه الإنجازات مستنداً إلى عدد من كتب الطبقات والسير والمؤرخين الذين أفاضوا فى الحديث عن السيد عبد الرحيم القنائى. وعددوا آراءه فى التصوف والأخلاق والعلوم الإسلامية، ومنهم ابن نوح الأقصرى فى كتابه «الوحيد فى سلوك أهل التوحيد» والأُدفوى فى كتابه « الطالع السعيد» والإمام الشطنوفى فى كتابه «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار». والإمام الشعرانى فى كتابه «لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار» المعروف بالطبقات الكبرى، والإمام المناوى فى كتابه «الكواكب الدرية فى طبقات السادة الصوفية» وغيرهم. وكلهم يجمعون فيما كتبوا على أنه القطب الصوفى الكبير، والعالم الفقيه الذى بلغت شخصيته المثل الأعلى فى صعيد مصر فى القرن السادس الهجرى فى جانبين من العلوم هما «الحقيقة» و«الشريعة» ـ رضى الله عنه وأرضاه.

* * *